البعد الروحي لكفاح الأمير عبد القادر من خلال منطلقاته الشرعية وطريقة سيره للدولة

د–محمد الطيب رزوق

المدرسة العليا للأساتذة مسعود زغار–سطيف–

الملخص:

حينما نتحدث عن كفاح الأمير عبد القادر يمكن أن نصفه بالكفاح التحرري الذي يسعى في طيات أهدافه التمكين للدين الإسلامي خاصة حين بناء دولته ، لأن كفاحه ارتكز على أسس ومنطلقات دينية مبنية على شعائر دينية هامة وقوية كالبيعة والشورى والعدل وتربية المجتمع وتعليمه وتهذيبه تأكيدا على هويته وانتماءاته، من خلال هذا الوصف أردت في هذه المداخلة أن أتحدث عن البعد الروحي لكفاح الأمير عبد القادر وفق الأهداف التالية: – البحث في الركائز المتينة التي اعتمدها الأمير في كفاحه وتسيير دولته ونوضح في هذا الإطار مصدر السلطة الفعلية لدى الأمير عبد القادر. — توضيح الصيغة التي اعتمدها الأمير في معاملة رعاياه واسترجاع ثقتهم في الحاكم مثل العدل والمساواة لبعث الهدوء والطمأنينة.

Summary:

When we talk about the struggle of Prince Abdul Qadir, we can describe it as a liberation struggle that seeks among its goals the empowerment of the Islamic religion, especially when building his state, because his struggle was based on religious foundations and starting points based on important and powerful religious rituals such as allegiance, consultation, justice, and raising, educating, and refining society in confirmation of his identity and affiliations. Through this description, I wanted in this intervention to talk about the spiritual dimension of Prince Abdul Qader's struggle according to the following goals:

- Researching the solid foundations that the Emir adopted in his struggle and running his state, and in this context, we clarify the source of the actual authority of Emir Abdul Qadir. - Clarifying the formula adopted by the prince in treating his subjects and restoring their confidence in the ruler, such as justice and equality, to create calm and reassurance. These and other goals were developed in this intervention

1.مقدمة:

يُعد الأمير عبد القادر الجزائري، من أهم الشخصيات الوطنية التي صنعت أمجاد المقاومة الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي، محققا بذلك مكانة هامة بعد انتصاراته العديدة، و التي شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، بعد أن أبهرهم في ساحات المعارك ، وبجنوحه للسلم وتركه للحرب فيه حِكمة و إدراكا لحقيقة الأمور و طبيعة الموازين، بفكره العميق.

وقد حقق الأمير هذه المكانة، بفضل قوة الفكرة التي حملها كلواء لمقاومته من المنظور الإسلامي العربي .وبفضل إيمانه الكبير بهذه المقاومة، انضم الأمير إلى مصاف القادة القلائل في العالم الذين جمعوا بين قوة السيف و قوة القلم و الحكمة.

ولقد دأبت الكثير من الدراسات أن تتناول الأمير من حيث سيرته الجهادية أو من حيث بناء دولته الحديثة، و الملفت للانتباه في كل هذه الكتابات المشرقية منها والفرنسية وحتى الجزائرية هو تركيزها الكبير على المحطات العسكرية في حياة الأمير، ثم على تنظيماته الإدارية و الاهتمام بالأمير كفارس و متصوف.

أما ما أردت تسليط الضوء عليه في هذه المداخلة المتواضعة، فهو الكشف عن التجربة التي خاضها الأمير عبد القادر، بأبعادها الروحية ومواقفها المنبثقة عن الدين الإسلامي والسلوك الديني في كفاحه التحرري من خلال المعطيات السياسية والعسكرية والأخلاقية في إقامة دولته.

انطلاقا من هذه الأرضية تكونت لدي الإشكالية المحورية التالية:

وهي أهمية البُعد الروحي كمنطلق جوهري لمقاومة الأمير وبناء دولته، وتكوينه للخلفية الثقافية و الذهنية القارة لديه .وعلى أنه عامل حاسم في تطور كفاح الأمير، وإن ظل الاهتمام بهذا الجانب مهملا بسبب كثرة الكتابات التي تتناول مقاومة الأمير من خلال الفعل الحربي،و التي ساهمت في تشكيل ما يمكن أن نسميه " بذاكرة الحرب."

وهكذا إذن سنحاول في هذه المداخلة الإجابة عن التساؤلات التالية:

هل أسس الأمير دولته على مقومات دينية؟ و هل كان نظام الحكم الذي أقامه إسلاميًا؟ أليس دفاع الأمير عن وطنه لسنوات ضربًا من ضُروب الأيمان؟ وما هي أهم المنطلقات الشرعية التي اعتمدها الأمير عبد القادر كأساس لبناء دولته؟ وكيف كانت المعاملة و السلوك الديني في كفاح الأمير؟

وللإجابة عن كل هذه التساؤلات وضعت خطت مناسبة تضمنت العناصر التالية:

1- مقدمة

2- المنطلقات الشرعية المعتمدة في كفاح الأمير (أ-البيعة ب – الشورى ج- الجهاد)

3- المعاملة والسلوك الديني في كفاح الأمير(أ-المساواة والعدل ب- التعليم ج- إحياء الأخلاق الإسلامية).

4- الخاتمة وتشمل أهم النتائج المتحصل عليها في نهاية هذه المداخلة.

أولا: المنطلقات الشرعية المعتمدة في كفاح الأمير:

يمكننا أن نصف الدولة التي بناها الأمير عبد القادر بالدولة الدينية، لأنها ارتكزت على أسس و منطلقات دينية، قلَّما اجتمعت كركائز في دولة ما.

ISBN: xxxx-xxxx

فهذه الأسس كانت مبنية على شعائر دينية هامة و قوية كالبيعة، و الشورى و العدل و تربية المجتمع و تعليمه و تهذيبه تأكيدًا على هويته و انتماءاته رابطا بذلك المفاهيم النظرية بالتطبيق العملي لهذه الشعائر عن طريق أجهزة هامة تكمل ما أوصى به الإسلام من معاملات و أحكام.

و قد حوّل الأمير هذه الأسس إلى ركائز متينة بعد البيعة، التي كانت بحق تنقية لإمارته من شائبة اغتصاب الحكم، خاصة بعد أن أكد على أن مصدر تشريعه وتحركاته لن يكون سوى الكتاب و السنة ، حيث قال: ((لن آخذ غير القرآن، لن يكون مرشدي غير تعليم القرآن وحده، فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لمات))[1].

و يفهم من هذا أن مصدر السلطة الفعلية لدى الأمير عبد القادر، هي الشريعة و بالفعل فقد حاول تطبيق تعاليمها بالالتزام برأي الجماعة، و الاعتناء بمؤسسات الشورى و دور القضاء غير منفرد برأيه و حيث أشرك العلماء من كل الأقطار، و لا يتخذ قرارًا إلاَّ بعد إجماع من الأعيان و العلماء، حتى فيما يخص قضية الجهاد، كان الأمير حريصًا على أداء هذا الفرض، على أكمل وجه مع المجاهدين المتطوعين للجهاد و الشهادة ، ونحاول أن نوضح في ما يلي بشيء من التفصيل هذه المنطلقات الشرعية التي اعتمدها الأمير في بناء دولته.

1-البيعة[2]:

إن إحياء الأمير لمثل هذه الشعائر، ما كان ليكون، لو لا انطلاقه من أرضية متينة، خولت له بناء الأسس اللازمة و القوية لبناء الدولة، و توجيه مهامها، والبيعة الشرعية التي تلقاها الأمير من أهل البلاد جاءت صادقة، نابعة من خوف شديد، من حالة الضياع و الفوضى، التي أبتلى بها الأهالي بعد الاحتلال الفرنسي، مما جعلهم يرضون باختيار العلماء و أهل العقد، و الحل لما لمسوه في عبد القادر دون غيره، فبايعوه بيعة شرعية دينية من منطلق الضمير، و ضرورة التحرك مصداقًا لقوله تعالى :((إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يدُ الله فوق أيديهم))[3].

و هذا ما مكن عبد القادر بعدها من لعب دوره كاملا، من خلال بنائه لأسس هامة، يكسب بها ثقة مبايعِيهِ، و بإنشاء مؤسسات جديدة و فعالة تسير شؤون الحرب و السلم معًا، و بذلك كانت الدولة التي شيدها الأمير عبد القادر، متشَّبعة بروح الدين الإسلامي، وفي مقدمتها، شرعية القيادة من خلال البيعة، والدفاع عن الأرض، و العرض و الأرزاق و هذا من خلال العناصر المكونة للبيعة التالية:

1- هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ت/أبو القاسم سعد الله،ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1982، ص ص 58-59.

2- البيعة: هي التولية وفعلها بايع أي عاهد، بويع: تولى للمزيد أنظر: المنجد في اللغة العربية المعاصرة،ط1، بيروت، دار المشرق،2000.

3- سورة الفتح، الآية رقم: 10.

ISBN: xxxx-xxxx

أ-مقدمات البيعة:

بعد دخول الفرنسيين وهران، خاف واليها حسن[4]، على عائلته و ثروته فاستسلم للجنرال الفرنسي، بهذه النهاية أصبحت السلطة شاغرة في غرب الجزائر فشعر الناس بضرورة إيجاد قيادة جديدة، وكانت الناحية الغربية في هذه الفترة لا تزال تحت تأثير القبائل المخزنية، فشعر الناس بضرورة البحث عن سلطان يحكم المنطقة.

فعرضت الإمارة على محي الدين والد الأمير، فلم يجد بدا سوى قبول توليه القيادة بعد اتفاق كامل من الأعيان و العلماء و زعماء القبائِل الذين طلبوا منه ذلك وألزموه بهذه الإمارة[5] ، قبل محي الدين و لكنه تنازل بها بعد ذلك لصالح ابنه عبد القادر[6]، في حين يذكر لنا صاحب التحفة أنهم ألزموه، أن يقبل الإمارة لنفسه أو لولده عبد القادر [7] أي أن الاقتراح كان صادرًا منهم، و هذا ما يفسره رضاهم به و بيعتهم له.

وهكذا وافقت القبائل على الأمير عبد القادر لما شاهدوا فيه من الصفات العلية و النعوت السنية، أما الناصري صاحب الإستقصا فقال رأيه في ترشيح الأمير: ((إنما كان فيه مضاء وإقدام فأسعفوه بشرط أن يكون نظره مسخبًا عليه))[8] ، في حين تذكر الأميرة بديعة أن من بين أسباب اختيار محي الدين لعبد القادر دون باقي أولاده، أنه سأله بعد أن اقترحه لزعماء غريس: ((كيف ستحكم بالعدل و الحق بين الناس عندما تصبح زعيمهم؟ فأجاب عبد القادر: سأحمل عصًا من حديد و كتاب الله و سنة رسوله. فأبتسم الوالد و اطمأن)) [9].

ب- البيعة الخاصة(البيعة الأولى):

عند شجرة الدردارة استقر الرأي على مبايعة عبد القادر بن محيي الدين لذلك المنصب، و تحت هذه الشجرة بايع محي الدين ابنه على السمع والطاعة[10] و لقبه بناصر الدين ثم تلاه عمه علي أبي طالب و إخوته و

4- **حسن باي :هو الحسن بن موسى عرف باحتجازه لمحي الدين و عبد القادر عند رغبتهما في الحج، ثم لجأ إليهما عند احتلال** وهران استسلم للفرنسيين في 4 جانفي 1831 ونقل للإسكندرية، انظر شارل هنري تشرشل، مصدر سابق، ص52.

[5]-علي تابليت، "رواد المقاومة الجزائرية، الأمير عبد القادر الجزائري" مقال في مجلة أول نوفمبر، العدد 151-152، ص25.

[6]- بسام العسلي، الأمير عبد القادر الجزائري، ط2، دمشق،دار النفائس، 1986، ص30، أنظر كذلك ترشل، مصدر سابق، ص56.

[7]-محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج2، شرح وتعليق ممدوح حقي ، دمشق، دار اليقضة العربية،1964
ص155.

[8]-الناصري أبو العباس، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري، ق3،ج9،الدار البيضاء،دار الكتاب،1956، ص191.

[9]- الأميرة بديعة، ناصر الدين الأمير عبد القادر،ط2، دمشق، دار السلام،1992،ص37.

[10]- محمد بن عبد القادر،المصدر السابق، ص156.

أقاربه ثم العلماء و الأعيان و رؤساء القبائل لناحية وهران وتلمسان و معسكر[11]، يقول صاحب التحفة: ((وقام عمه علي بن أبي طالب و بايعه وكذا الإخوة و سائر القرابة، ثم الأشراف والعلماء و الأعيان و الرؤساء حسب مراتبهم و طبقاتهم، بايعوه على ما بايعه عليه الوالد))[12].

ج- البيعة العامة(الثانية):

كان الأمير قد أمر بإيداع خبر البيعة، باستدعاء بقية القبائل لحضورها، و وزع بعد إجراء البيعة الأولى فقد دعا إلى البيعة العامة، ووزع لذلك الغرض منشورًا على سائر القبائل[13]، و في ظرف قصير نسبيًا حققت الرسائِل نتائج إيجابية[14]، فحضرت إلى معسكر جموع كثيرة و انعقد مجلس عام، من الأشراف والعلماء والرؤساء من كل قبيلة وفريق [15]، و جرى فيه عقد البيعة العامة.

فكانت بحق بيعة شعبية و كان هذا يوم 13 رمضان 1248 هـ الموافق لـ4فيفري1833[16]، وتم ذلك بالساحة الرئيسية لقصر الإمارة بالمسجد الجامع بمعسكر[17]، ومما جاء في نص هذه البيعة العامة الالتفاف حول إصلاح وضع البلاد والدعوة للجهاد[18].

2-الشورى:

كان الأمير عبد القادر ملتزما برأي الجماعة، في تسيير شؤون دولته و هو ما يسمى بالشورى حيث تمكن بفضلها من كسب أغلبية المناصرين[19]، و قد أراد الأمير بتركيزه على هذه الدعامة الأساسية- أي الشورى -إرضاء الله عز وجل كما جاء في القرآن الكريم :((و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون))[20]، واقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يشاور أصحابه في قضايا هامة، و لأن هذه الركيزة المهمة قد تواصلت في عهد الخلفاء الراشدين أيضًا، إذ تميز عهده بالنزاهة والبساطة و العدل و الاستعانة بذوي العلم و الخبرة[21].

---

[11]-عبد الحميد شعابنة، الامير عبد القادر المجاهد المثقف والسياسي الفارس، مجلة أول نوفمبر،عدد165، 2001الجزائر، ص30.

[12]- محمد بن عبد القادر،المصدر السابق، ص157

[13]- عبد المجيد شعابنة،المقال السابق، ص30.

[14]-محمد العربي زبيري، الكفاح المسلح في عهد الأمير عبد القادر، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للطباعة، 1982،ص27.

[15]-محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ج1، ص157.

[16]-نفسه

[17]- أديب حرب،رجال وتاريخ عبقرية الأميرعبد القادرالعسكرية، مجلة أول نوفمبر،عدد 161، الجزائر،1999، ص88.

[18]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر،ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1980، ص204.

[19]-عبد الله شريط، "مشكلة احكم الإسلامي في دولة الأمير عبد القادر ونظرية الشيخ بن باديس ، **مجلة الثقافة**، عدد75،ماي-جوان1983،ص237.

[20]- سورة المائدة، الآية 38.

[21]- عبد الحميد حاجيات، "مبدأ الشورى في نظام الحكم بالمغرب العربي خلال العصر الوسيط، **مجلة التاريخ**،الجزائر،1984.

ISBN: xxxx-xxxx

و كان لتربية الأمير الدينية، دور بارز في إدراكه لأهمية الشورى باعتبارها الوسيلة الوحيدة القادرة على إلغاء أشكال الاستبداد، بالرجوع إلى حكم الجماعة و بالاجتهاد فيما أجازته الشريعة مقتنعًا بأن القائد مهما كان، سيبقى مقيدًا بهذه القوانين الشرعية، لكون طاعته من قِبل الأمة مرهونة بمدى التزامه بها.[22]

و لهذا اختلف النظام السياسي في عهد الأمير عنه في عهد الدايات بفضل نظامه الشوري و يمكن أن نستنتج ذلك، من خلال القرائن التاريخية العديدة التي جاءت في المصادر، و التي تتحدث عن الأمير، سواء بعرض المؤسسات التي أقامها لتطبيق الشورى، أو بأمثلة عن أوجه المشاورة، التي تعامل بِها الأمير عبد القادر[23].

فكان الأمير عبد القادر يعرف نفسه أنه إنسان، و هو بذلك معرض للخطأ، و حِكمة منه ارتأى أن يقيم مجالس للشورى، لتبتعد دولته عن دولة السلطة و القهر، محاولة منه الالتزام برأي الجماعة و الأغلبية، التي كانت تحبه فقَّلَ من هلك إلاَّ برأيه .على حد قول بعض الحكماء: ((نصف عقلك مع أخيك فاستشره، فإن الاعتصام بالمشورة، لأنها تقيم اعوجاج الرأي و قلَّ من هلك إلا برأيه))[24].

أ–المؤسسات الشورية في عهد الأمير عبد القادر:

رغم الصلاحيات الكثيرة التي كان يتمتع بها الأمير عبد القادر إلاَّ أنه فضل إقامة مؤسسات في شكل مجالس تقوم مناقشة القضايا و التشاور فيها[25]. و لهذا الغرض شكل بأمرٍ منه مجلس استشاري عام و مجالس استشارية فرعية نستعرضها فيما يلي:

–المجلس الشورى الأعلى الأميري:

هو أعلى هيئة قضائية، وظيفية تجمع بين وظيفة المحكمة الاستئنائية و النقض بالنسبة للأحكام[26]، ويعتبر هذا المجلس السلطة الموازية لسلطة الأمير و يضم أحد عشر عضوًا من كبار العلماء و المشايخ [27]، يمثلون المناطق المختلفة لتجنب الإقصاء و لتمكينه من لعب الدور الحاسم في القضايا المتعلقة بمصير الأمة، بالإضافة إلى أنه كان يهتم بآراء الفقهاء و مشاورتهم، و هذا ما يؤكده لنا صاحب التحفة فيقول بخصوص هذا المجلس: ((أن الأمير رتب مجلسا للشورى، يشمل على أحد عشر عضوًا من أجلَّة العلماء، و جعل رئاسته للعلامة و قاضي القضاة السيد أحمد الهاشمي المراحي))[28].

---

[22]– عامر البغدادي، دولة الأمير عبد القادرالجزائري(1832–1848)، دراسة في نظام الحكم في الاسلام،بحث تكميلي لنيل شهادة الماجستير،كلية الشريعة والعلوم الاجتماعية وقسم العلوم السياسية،السودان، جامعة أم درمان الاسلامية،1987، ص10.

[23]– محي الدين بن عربي، محاضرة الأبرار ومسامرة الأخبار،المجلد الثاني،بيروت،دار صادر،د ت، ص35.

[24]–فوزي أوصديق، النظام الدستوري الجزائري، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،1995 ،ص61.

[25]– نفسه،ص62.

[26]–أحمد مطاطلة،"نظام الإدارة والقضاء في عهد الأمير عبد القادر، مجلة الذاكرة،العدد الرابع،الجزائر،1996، ص172.

[27]– ساحل عبد الحميد، مرجع سابق، ص54.

[28]–محمد بنعبد القادر الجزائري، مرجع سابق، ص158.

ISBN: ××××-××××

و كانت مثل هذه المجالس الثابتة، مفتوحة دائمًا أمام علماء الأمة، بغرض إيصال الرأي السديد للأمير، من أي مكان تواجدوا بِه و كان الأمير يرحب بذلك، حرصًا منه على تعزيز ثقته، بقراراته و عدم تجاوز أحكام الشرع وقوانين الدولة.

المجالس الشورى الفرعية:

تتبع هذه المجالس في دورها، المجلس الشوري الأعلى الأميري، في السِّلم خاصة، و تخضع له مباشرَة فيما تصدره مثل:

-الفتاوى و الآراء الفقهية المستمدة من الكِتاب و السنة و ما استقر عليه إجماع الأئمة و الفقهاء.

2-المداولة في الدعاوى الهامة بين الأفراد،المتعلقة بمصالح الدولة.

3-المهمة الاستشارية عمومًا.[29]

إضافة إلى تشكيله لهذه المؤسسات الشورية،فقد عمل الأمير بالمبدأ الذي أكده الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال : ((وما خاب من استشار)) فوسع دائرة مشاوراته، إلى علماء فاس و الأزهر و القرويين وعلماء الزيتونة حرصًا منه على عدم مخالفة الكتاب و السنة و حتى اجتهاد الفقهاء وذلك ((تأكيدًا لحجته و توطيدا لمحبته)) وقد أفاده ذلك كثيرًا في تثبيت أركان إمارته و حماه من الصيحات الرافضة، لما قام به بحجة عدم الالتزام بالدين[30].

حيث كان يعتمد النوازل المشهورة، و الفروع المأثورة من الكتاب والسنة، فكان بذلك حريصا على تقريب العلماء منه و من حكومته، لما لهؤلاء من دور فعَّال، في الحفاظ على الدولة و توازناتها، و لقدرتهم على التمييز بين الصواب والخطأ، فكانت هذه الفتاوى حصانة له، و إزالة لحجج المعارضين ولالتفاف الناس من حوله مجددًا راميًا من ورائها إيقاظ ضمير الشعوب الإسلامية و حثها على إعلان الحرب على المستعمر[31].

3- الجهاد:

كثيرًا ما يختلط عند الناس مفهوم الجهاد بالقتال و المرابطة فقط، بينما الجهاد هو بذل الوسع و تحمل المشقة سعادة لما يحمله من معاني قدسية روحية قد تتحقق في السلم أو الحرب على حدٍ سواء[32]، كما تبين في

---

[29]-نفسه ،ص159.

[30]-الأميربديعة الحسني،ناصر الدين، مرجع سابق، ص110.

[31]-أحمد رويش، في صحبة الأميرين-أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري،ط1،الكويت،مؤسة جائزة الابداع الشعري،2000،ص 157.

[32]-محمد لحبيب بن خوجه، "دور الإسلام في الكفاح التحرري "، ملتقى الفكر الإسلامي السادس بالجزائر، 10 أوت 1972،مج1، قسنطينة، دار البعث،ص188.

ISBN: xxxx-xxxx

القرآن الكريم في قوله تعالى: ((و جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله))[33] وفي قوله أيضا: ((فلا تطع الكافرين و جاهدهم به جهادًا كبيرا))[34]

فالجهاد إذن جزء لا يتجزأ من الإيمان، حيث يأتي في المرتبة الأولى، بعد أركان الإسلام الخمسة، حيث يرى بعض الفقهاء، أن الجهاد له درجة الوجوب كالأركان الخمسة [35]، لأنه فرض عين في دين عبادة، و تقوى و لكونه ممارسة ضرورية و لازمة لاسترداد كرامة المسلمين، و الواجب الإخلاص فيه فرديا وجماعيًا مصداقًا لقوله تعالى : ((و الذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا و إن الله لمع المحسنين))[36] ،فمعنى الجهاد لا يتوقف عند الدفاع المسلح، عن قضية عادلة بل له فلسفته و أبعاده كباقي العبادات الأخرى و هو بذلك يحتل مكانة هامة في الإسلام.

ولقد فرضت الضرورة على الأمير عبد القادر إعلان الجهاد، خاصة في ذاك الإطار الفكري الذي تحكمه النخوة الدينية، الممثلة للقوة الأساسية وراء العمل السياسي و العسكري[37]، فعندما وقع الاحتلال الفرنسي، أثيرت من جديد الحماسة الدينية و ظهرت " الحرب المقدسة" وكانت مبايعة الأمير، مؤشرًا هامًا على انطلاق الجهاد، بعد أن عهد محي الدين لولده بحمل الراية[38]، و بهذا التكليف حصل عبد القادر على مبايعة الجميع فكان الامتثال لأمره، و لأوامر الدين، بعد لجوئه للشعب ليكون دولة فعلية على أنقاض العثمانيين و هو عامل حاسم في شرعيته وفي جهاده[39].

فكان هدف عبد القادر الأسمى من الجهاد، هو أن يجعل الجزائريين شعبًا واحدًا ((باستمالتهم إلى المبادئ الإسلامية، و استدعائهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة و إيقاظهم من الغفلة))[40]، فقد كانت هذه المعركة الجهادية بالنسبة له صراعًا بين الخير و الشر، والعدل والظلم، والمقصود منها تحدي الدين الإسلامي و هذه العقيدة التي فرضها الله تعالى، فمقصود الأمير الفعلي هو المحافظة على هذا التراث الروحي و الفكري الذي أرادوا قتله و محاربته[41].

---

[33]-سورة التوبة، الآية41.

[34]-سورة الفرقان، الآية52.

[35]-حامد الجار، "الجهاد وأبعاده الروحية والسياسية والاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع"، ملتقى الفكر الإسلامي العاشر بالجزائر، 19 جويلية 1976، قسنطينة، دار البعث،ص286.

[36]- سورة العنكبوت، الآية 69.

[37]-عبد العاطي محمد أحمد،"الإسلام والعروبة في المغرب العربي"،مجلة قضايا عربية، السنة السادسة، العدد الثاني، مصر، جويلية1979، ص261.

[38]-نفسه،ص267.

[39]-عامر البغدادي، مرجع سابق،ص76.

[40]- محمد بن الأمير،مصدر سابق،ج1،ص59.

[41]- الأميربديعة الحسني،ناصر الدين، مرجع سابق،ص102.

ISBN: ××××-××××

وإن إيمانه وإخلاصه في الجهاد جعله يقدم كامل التضحيات، و لا يتردد في ذلك أبدًا مهما كان الثمن، لدرجة أنه كان لا ينام و لا يغمد سيفه لأسابيع طويلة[42] و كان يعتقد أن ساعة واحدة في قِتال الكافر، أحسن من المكوث في مكة سبعين سنة[43]،و بذلك كان هدفه الأسمى، إعادة الأمة المجاهدة المحاربة للوجود والمعتمدة على الجيش النظامي، لا الجيش المرتزق الذي كان سائدًا في عصره، فجعل الجهاد يحتل مرتبة عظمى، و فضله على العبادة حيث كان يردد قصيدة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب.

ريح العبير لكم و نحن عبيرنا وهج السنابك و الغبار الأطيب.[44]

ثانيا: المعاملة والسلوك الديني في كفاح الأمير:

لقد أدرك الأمير عبد القادر، بعد أن تولى الحكم و القيادة، ضرورة الحرص في اختيار صيغة خاصة لمعاملة الرعية، و استرجاع ثقتهم في الحاكم، فلم يجد غير العدل و المساواة لبعث الهدوء و الطمأنينة في نفوسٍ تعودت على الاستنفار الدائم مع الحكام بسبب الظلم و الجور، كما أدرك أيضًا دور الأحكام التي تصدر عنه، في توجيه هذا المجتمع، و في تقوية ركائز الدولة.

فكان حريصًا على البدء بنفسه و بالمقربين، حيث يتساوى الجميع في إعلان كلمة الجهاد، و واصل هذا النهج في كل محطات بناء الدولة كاختيار الكفاءات المشيِّدة لها ثم تبينت له أهمية العلم، في المجتمع الصالح، و نتائج ذلك في بناء الدولة، فراح يبذل قصارى جهده، ليُحبِّب العلم و الكتب لجنوده، و لشعبه، جاعلا معركة الجهاد موازية لمعركة محو الجهل، و بناء المدارس و تشكيل المكتبات.

و حفاظا على هذا التطور الجديد، أعاد بعث و إحياء روح الشريعة الإسلامية، لما لها من قدرة، على حفظ التعاملات، بين الأفراد و تقوية للروابط بداخل المجتمع وتقربهم لله عزَّ و جل ومن الحق و الاستقامة، بتوجيه من الدين الإسلامي بمحاربته للتقليد و التواكل، فتؤكد هذه القضايا كلها على البعد الروحي في شخصيته وعلى بعد رؤيته الفكري[45].

كما كان مؤمَنا، بأن الإسلام هو وارث لخير ما يوجد في الحضارات السابقة، و لهذا حاول الأمير أن يقتدي بأبطال هذه الحضارة، في كل معاملاته مؤكدًا على انتماءاته العربية و الإسلامية محافظا على هويته، معبرًا عن نظرة الامتداد لديه في فكرة الوطن، وفي هذا الإطار نحاول أن نبين أهم العناصر التي تبرز في معاملاته أثناء بناء دولته .

أ–العدل والمساواة:

[42]–جمل الغيطاني، الأمير عبد القادر بطولة بعين فرنسية، مجلة العربي، العدد296، الكويت،جويلية1983،ص74.

[43]–عمر بوزيان،جذور اتحاد المغرب والجزائر(1832–1845)، الرباط ،منشورات دار عكاظ،1988،ص90.

[44]–محمد بن عبد القادرالجزائري، نزهة الخاطر،مصدر سابق،ص12.

[45]– عبد الحميد ساحل،أصول الفكرة الإصلاحية من خلال الصحافة الجزائرية الناطقة بالعربية(1903–1925)، الجزائر،1995،ص64.

ISBN: xxxx-xxxx

ظل العدل و لا يزال ضد الجور، محاكيًا للاستقامة، المتوسط دائمًا بين طرفي الإفراط و التفريط [46]، و المساواة هي عدم التفرقة و التمييز، و ما إن تجتمع هذه الصفات حتى يكسب بها صاحبها الثقة و الولاء، و هذا ما أدركه الأمير عبد القادر بعد أن أصبح الملاذ الأخير لقومه، خاصة بعد أن وضعوا فيه كل ثقتهم فأوجب على نفسه إتباع سياسة العدل و المصلحة العامة التي أمره الله بِها، لما يُوافق الناس، و يكون في صالحهم وتمسك بالمساواة كركيزة لدولته[47]، مجسدًا لها، لا بين مواطنيه فحسب، بل بينه و بينهم باعتباره ممثلا للدولة و لسلطتها[48].

وجدت المساواة و العدالة في ظل هذا النظام الأرضية التي تبلورتعليها، كونها مبدأ مستوحى من الشريعة الإسلامية، و على هذا الأساس، لم يخشى الأمير أي قوة أخرى ما عدا الله في تنفيذ القوانين[49]، و قد لا نستطيع حصر كل الإنجازات التي مستها العدالة على كثرتها، و لكن سنحاول تسليط الضوء على بعض الميادين التي تجسدت فيها هذه المعاملة الراقية، و التي هي من أمهات الفضائل فيقول الأمير عبد القادر بهذا الخصوص: ((فأمهات الفضائل هي هذه الأربع، العلم الشجاعة، العفة، العدل فمن جمع هذه الأربعة، على الكمال، استحق أن يكون ملكا مطاعًا يرجع الخلق كلهم إليه و يقتدون به))[50].

نذكر من هذه الميادين المساواة في المشاركة في الحرب والجهاد، ولعل أول دلائل العدالة في هذا مشاركة الأمير في الحرب بسيفه و جواده، غير مستثن منها أهله و قبيلته و هو الذي يقول في ذلك: ((ما فعلت ذلك خوًفا من تمييز نفسي أمام ضربات قنابل العدو و لكنني فعلته لأنني كنت أرغب أن لا أُفرض على العرب إلا ما افرضه على نفسي))[51].

وحاول الأمير إزالة مظاهر اللامساواة و التفاوت، بين أفراد شعبه من خلال التزامه بالعدل و المساواة في تحصيل ما يلزم و يتوجب على رعيته، فكسب ثقتهم وألهب حماسهم الديني لمناصرته،و عمل جاهدًا على تخفيف الأعباء، التي كانت موجودة في آواخر العهد العثماني، كضريبتي اللّزمة والغرامة، المخالفتين للشريعة الإسلامية،لكنه احتفظ بضريبتي العشور و الزكاة،الأولى في المزروعات، موسم الخريف والثانية من الأنعام بنسب معينة، أما المعونة التي استحدثها الأمير لتجديد الحرب وخلق التكافل داخل المجتمع ،فجاءت لمساعدة المحتاجين و لخلق التوازن المادي داخل المجتمع[52].

---

[46]- بطرس البستاني، محيط المحيط، مطابع تيبوبورس،بيروت، 1998،ص581.

[47]-الأميرة بديعة، ناصر الدين، مرجع سابق، ص43.

[48]- اسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث،مرجع سابق،ص521.

[49]- أحمد ملاح ، المرجع السابق،ص 100.

[50]- الأمير عبد القادر الجزائري،ذكرى العاقل،مصدر سابق،ص81.

[51]-هنري تشرشل،مصدر سابق، مرجع سابق،154.

[52]-إسماعيل زروخي، الدولة في الفكر العربي الحديث، دراسة فكرية فلسفية،ط1،القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع ،1999،ص522.

 ISBN: xxxx-xxxx

كما أبطل الامتيازات التي كانت تحظى بها بعض القبائل :كالمخزن و الكراغلة والدوائر و الزمالة، و قد دفع ثمن هذا الإبطال غاليًا بثورتها، نظرًا لتعودها على المكانة العليا في المجتمع و بذلك دفعت ثمن انسلاخها عن الشعب، و بعد هذا القرار الشجاع لم تعد هناك استثناءات من دفع المعونة الحربية [53]، و لم يقم الأمير بفرضها إلا بعد أن استشار العلماء و الفقهاء، كي لا يتجاوز في ذلك حدود الشرع، مُشدِّدًا على جامعيها استخلاصها دون وقوع مخالفات، حرصًا منه على تفادي أخطاء النظام السابق، و على إرساء دولة نظيفة هدفها الأكبر ردع الاستعمار و طرده بمعركة يشارك فيها الجميع، دون استثناء[54].

أما في ممارسة العدل بين مواطنيه، فقد عمل الأمير على بناء جسر شرعي، بينه و بين شعبه، و التزم لمد هذا الجسر بتطبيق العدل في أحكامه، و بث روحه في كل المؤسسات، و أولها الحكومة التي يستحلف كل موظفيها، على صحيح البخاري دون استثناء[55]، مؤمِّنا بأنه لا فضل لعربي على أعجمي و لا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، و أن المؤمنين، إخوة و سواسية كأسنان المشط لقوله تعالى: ((إنما المؤمنون إخوة)) وبقوله : أيضا ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى و جعلناكم شعوبًا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير))[56].

و قد أعطى عبد القادر المثال الثابت و التاريخي، الذي لا يزول حيث أنه لم يعط الأفضلية في اختيار موظفيه لعرب الأرياف لكونهم مسلمين و هو منهم، بل منحها لأصحابها فلم يبعد الكراغلة و رجال المخزن، بل حاول كسبهم ووضعهم في مناصب هامة لعمق نظره حسب ما يؤكده لنا تشرشل: ((تقدير منه للنتائج المثمرة التي تعطيها النظرة الصحيحة للتكوين الطبيعي للمجتمع))[57]

و بفضل العدالة و المساواة تجاوز الشعور بالانتماء للقبيلة، بنزعه للامتيازات والوصول إلى شعور راق، هو الشعور الوطني اتجاه الوطن المهدد، فهذا الشعور بالوحدة، هو القوة الحقيقية التي مكنته من الصمود طويلا ، بل و أبدع في مسألة العدالة و المساواة فأعطاها مفهوما سياسيا لم يكن موجودا من قبل، و إن وجد فقد كان مبتورًا من بعض العلماء المتزلفين للحكام، بقطع الآيات القرآنية عن سياقها العام[58].

---

[53]–أحمد ملاح، التصوف والاصلاح عند الأمير عبد القادر،دراسة تحليلية نقدية(رسالة ماجستير)،قسم الفلسفة، جامعة الجزائر،1989، ص ص17–18.

[54]– عامر البغدادي، المرجع السابق، ص49.

[55]–محمد الطاهر اعزوزي،"تصوف الأمير عبد القادر تصوف جهاد في الجزائر وفي السجن بفرنسا وفي المنفى بالمشرق العرب"، مجلة المجلس الإسلامي الأعلى،العدد الأول، الجزائر،1998، ص190.

[56]–سورة الحجرات، الآية 13.

[57]–هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ت أبو القاسم سعد الله،ط2، الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1982، ص156.

[58]–اسماعيل زروخي، المرجع السابق،ص522.

 ISBN: ××××-××××

. وفعلا صدق من قال أنه:((لا عدالة بلا مساواة ولا مساواة بلا حرية))[59]وقد حقق الأمير هذه المعادلة الصعبة إرضاءً لربه، واستجابة لواجبه و ضميره فصدقت الآية الكريمة القائلة بعدم استواء الحكام في طريقة حكمهم و لا في تطبيقهم لمبدأ العدالة والمساواة و لا في تعويد الناس عليه في قوله تعالى:(أفمن كان مؤمنًا كمن كان فاسقًا لا يستوون))[60].

ب– التعليم:

رغم مهام الأمير الحربية، كما رأينا إلا أنه كان رجل، علم يفسر أعظم الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، و يراسل علماء العالم الإسلامي مجادلا و مجيبًا و مستفسرًا[61] لمعرفته أن الدولة الإسلامية هي دولة العلماء والمجتهدين، شعاراتها: العلم، العمل، الإيمان.

و أبدى الأمير من خلال بنائه لدولته اهتماما كبيرًا بالعلم، و أحاطه بالعناية و الرعاية، من خلال معاملته للطلاب و إيصال العلم النافع لهم،فالعلم و التعليم بالنسبة للأمير يعد نشاطا أساسيًا للنهضة و لهذا اهتم بوسائل الارتقاء بالعلم من خلال ما يلي:

- **بناء المدارس:**

تنبه الأمير إلى أهمية التعليم، و خاصة بعد أن لاحظ الجهل المخيِّم، على المسلمين، و أدرك أن القوة المادية، وحدها عاجزة عن تبليغ رسالته الإصلاحية.فأخذ على عاتِقه بعث روح التحرر من الجهل في شعبه[62]، وأسس لذلك الغرض نظامًا تعليميًا بين جميع القبائل ، أساسه القرآن في كل مراحل التعليم سواء كان ابتدائيا أو ثانويًا أو عاليًا[63] ، حيث يورد لنا تشرشل في هذا السياق قول للأمير في التعليم من منطلق الواجب فيقول:

((واجبي كحاكم مسلم أن أؤيد و أبعث العلوم و الدين،و لذلك فتحت المدارس في المدن و بين القبائِل و فيها يتعلم الأطفال الصلوات و يحفظون تعاليم القرءان و فروضه ويعرفون جيدًا القراءة و الكتابة و الحساب))[64].

و قد بلغ عدد المدارس التي بناها الأمير، بتلمسان وحدها خمسون مدرسة ابتدائية، و معهدان كبيران للتعليم الثانوي و العالي هما):مدرسة الجامع الأعظم ومدرسة أولاد الإمام، بالإضافة إلى تفكيره، في بناء مدرسة عليا للطب، غير أن حُلمه هذا لم يتحقق بسبب قصر فترة السِّلم بعد معاهدة تافنة،كما لعب المسجد دوره في التدريس[65].

---

[59]– روجي البعلبكي،موسوعة روائع الحكمة والأقوال الخالدة، ط2، بيروت، دار العلم للملايين،أفريل1999،ص565.

[60]– سورة السجدة،الآية 18.

[61]–فريد جحا، عبد القادر الجزائري متصوفا،مجلة المعرفة،العدد185 ، سوريا، جويلية 1977،ص 129.

[62]– أحمد ملاح، مرجع سابق، ص112.

[63]–يحي بوعزيز،الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، د ط،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1983،ص140.

[64]–أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ط3، الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1982،ص10.

[65]– هنري تشرشل،مصدر سابق، ص152.

 ISBN: ××××-××××

-تشجيع العلم والعلماء:

و ليحقق النجاح لمشروعه التعليمي و يضمن التحاق الأغلبية بِه، جعل التعليم مجانًا لرغبة بعض الطلبة المجتهدين في مواصلة دراستهم، علاوة على هذا فقد كان يخصص رواتب للطلبة حسب معارفهم و درجاتهم، و هي وسيلة ذكية لجلبهم وخلق التنافس الشريف بينهم، فكانوا يُشجعون لتفوقهم بمنح خاصة، مما جعل الناس يقبلون على العلم بكثرة[66].

كما حرص على الجانب المعنوي لهؤلاء الطلاب، و أعطى أوامره باحترام المثقفين والعلماء، أينما وجدوا مع إعفائهم من الضرائب لحاجتهم للمال من أجل ظروف دراسية مستقرة، كما كان أيضًا يجري امتحانات دورية لمعرفة المجتهدين.[67]

و قد كان هذا التقديس للمعرفة و الدراسة و الثقافة، في زمن الحرب و السِّلم على حد سواء، بل كان يقوى أكثر أيام الحرب[68]،و في هذا الإطار يقول دينيزين و هو شاهد عيان ((أن الأمير أرسل ثلاثين شابًا عربيًا إلى مرسيليا ليتعلموا هناك الفنون و المهن على حسابه الخاص))[69].

وكان الأمير حريصا على طلبة العلم، و كان يعفو على المحكوم عليه إذا كانوا من طلبة العلم ، و قد قال في هذا الصدد : ((إن الساكن في كوخ قد يقطع نخلة لا تريحه ولكن كم سنة يجب عليه أن ينتظر قبل أن يكون في استطاعته أن يذوق ثمار نخلة أخرى يغرسها))[70].

إن هذا الحرص الشديد جعله يرتب المعلمين في سائر المدن و القرى لتدريس العلوم المتعددة، يضع لهم رواتب تختلف حسب درجاتهم العلمية، الأمر الذي شجع الناس على طلب العلم، و أعطى للمدرس مرتبة عالية في المجتمع و حثهم على احترام أهله وجعل من المدرسين أعز المساعدين له في المهمة المقدسة التي رسمها[71].

-جمع الكتب والحفاظ عليها :

كان الأمير يبذل قصارى جهده، في جمع الكتب و المحافظة على المخطوطات من الضياع، حيث أنه كان يقدر جيدًا الزمن الذي يلزم لكتابة نسخة واحدة فالحفاظ عليها، أفضل من بذل ذلك المجهود الذي يجدر توجيهه لمساعي جديدة وعلوم جديدة، حتى أنه أمر جنوده بأن يوافوه بكل كتاب يعثرون عليه ، و كان يعاقب من وُجِد بصدد إتلاف مخطوط معاقبة شديدة و يشجع في نفس الوقت بجوائز كبيرة من يأتيه بمخطوط أو

---

[66]-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص141.

[67]- مصطفى نويصر، الأمير عبد القادر في ذكراه المئوية 1983،(لمحة تاريخية وبيبليوغرافية)،د ط ، الجزائر، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث،1983، ص ص 30-31.

[68]-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص67.

[69]-أ-ف- دنيزن، **الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية والعربية في الجزائر**، الجزائر، دارهومة،1999،ص52

[70]-هنري تشرشل، مصدر سابق،ص152.

[71]-Paul AZAN ,L'emir Abdelkhader, De fantisme musulman au patriotisme français(1808-1883),Paris,Hachette(1925),P135.

 ISBN: xxxx-xxxx

يحافظ عليه من الضيّاع، ليعطى بعدًا آخر لمشروعه الإصلاحي و يقوم الأمير عندها بجمعها و إخفائها في أمكِنة أمينة ، و قد بلغ عدد كتبه 5000 مخطوطة مجلدة تجليدًا فاخرًا، أضافها لما أحضره معه من كتب في رحلته المشرقية بعد جهد كبير[72].

و نظرًا للحجم الثري لهذه المخطوطات وقد شكلت بالفعل نواة هامة لمكتبته في تاكدامت ، حيث كان يهدف إلى إنشاء جامعة و مكتبة مركزية بها، تجمع بين العلوم الدينية و العلوم الحديثة العقلية لأنه كان يرى فيها مشروعا لمركز سلطة هام، لكنه حرصًا على أرواح ساكنيها، نقلها تماشيًا مع أحوال الطوارئ إلى الزمالة.
و بلغ عدد ما فيها من مجلدات قرابة الخمسمائة ألف كتاب – كما سبق و أن ذكرنا[73] – .

لكن معركة عين طاقين سنة 1843م، و بالهجوم على الزمالة كانت المكتبة أول هدف، للمشاة من الجنود الذين تخفوا بألبسة جيش الأمير عبد القادر وهاجموها [74]، فخسر بذلك الأمير كتبه، وحزن عليها حزنًا شديدًا لكونه تتبع مسار الجيش الفرنسي من خلال أوراق كتبه المبعثرة و الممزقة و التي كلفته جهدًا بالغا لجمعها منذ رحلته الأولى للحج [75]، و تذكرنا بما فعله الأسبان عند دخولهم الأندلس و ما فعله المغول عند احتلال بغداد ، و تذكر الأميرة بديعة حفيدة الأمير في كتابها عن الأمير عبد القادر، أن أحد الصحفيين ذكر أنه رأى الجنود الفرنسيس بعد تدمير مكتبة الأمير الشهيرة ينقلون جزءًا من محتوياتها من كتب علمية و مخطوطات نفيسة[76].

فمرتبة العلم و تعليمه عند الأمير تبلغ درجة اللذة الروحية، لا يعيقها سوى العادات السيئة، و استيلاء الشهوات على عقول الناس ، و لإرجاع هؤلاء إلى جادة الصواب فلا بد من تسبيق العلوم الشرعية، و إعطائها حصة الأسد في تكوين الناس بغسل كل الشوائب و الرجوع إلى الدين، يقول الأمير عن هذا الأمر: ((و إياكم أن تظنوا أن العلوم الشرعية مناقضة، و منافرة للعلوم العقلية، بل أي شيء جاء عن الأنبياء مما شرّعوه للناس، لا يخالف العقول السليمة))[77].

لكن الأمير لم يكن مقتنعا بتدريس العلوم الشرعية فقط فالعلم لا يتعارض في رأيه مع الشرع أبدًا، بل هما مكملان لبعضهما ويقول على لسانه : ((لا غنى بالعقل عن العلوم الشرعية ولا غنى بها عن العقل والذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل، جاهل و المكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن

[72]–يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 142.
[73]–نفسه،ص 143.
[74]–الأميرة بديعة،ناصر الدين،مرجع سابق، ص48.
[75]–هنري تشرشل، مصدر سابق، ص139.
[76]– يحي بوعزيز، المرجع السابق،ص141.
[77]– عبد الحميد ساحل، المرجع السابق، ص65.

 ISBN: ××××-××××

تكونوا من أحد الفريقين و كونوا جامعين بينهما فإن العلوم العقلية كالأغذية، و العلوم الشرعية كالأدوية))، إذن فالأمير كان يعرف قيمة العلم و لا يبخل به على أتباعه و لم يهمل حتى العلوم الدنيوية في ذلك[78].

ج-إحياء الأخلاق الإسلامية:

دولة الإسلام هي دولة عقائدية، مهمتها المحافظة على الأخلاق الإسلامية، عن طريق إرشاد و توجيه الأفراد، فدولة الإسلام لم تقتصر في وظائفها على الأعمال الدنيوية، بل أيضًا على الأعمال الأخروية، بالرجوع إلى ما يأمر به الشرع الإسلامي و لهذا يبقى الإصلاح كمصطلح و كضرورة دائمة لتقويم المجتمع، و هو في جوهره حركة علمية و عملية، ترمي إلى تحسين الوضع الديني أو غيره، بالقضاء على مسبباته، و استبدالها بالقيم الأصيلة ببعث روح جديدة لبناء المجتمع من جديد[79].

يعود الأمير للجوهر في تطبيقه القانون الشرعي، دون رفض القانون الوضعي الذي قد يحقق المنفعة للأمة ، فاجتهاده المعتمد على العقل و الحكمة والتكيف والمرونة مع كل المواقف التي تخص الفرد و المجتمع هام جدًا[80]، و هذا ما سعى إليه الأمير بتربية شعبه و تهذيبه أخلاقيًا، من خلال بعض الأحكام التي أصدرها بخصوص بعض المحاذير و أهمها:

- **منع المحرمات ومحاربتها:**

حيث شرع الأمير عبد القادر الجزائري في إصلاح شعبه باستخدامه لأسلوبين، أسلوب هادئ يعتمد النهي عن طريق التأمل و الفصاحة و الدهاء و صواب الرأي،لحمل خصومه على طريق الهدى، والأسلوب الثاني يعتمد الترهيب حين يجد المخالفة و التعنت و العصيان و يقول صاحب التحفة: ((من العجب أن تمكن إمارته بقوتين قوة رغبة و قوة رهبة، إ لا أن القوة الأولى كانت هي المعول عليه))[81].

و يرى الأمير أن إصلاح المجتمع، لا يتأتى فجأة بل عليه إصلاح الفرد، بتعريفه لذاته و بنائها فيقول في مواقفه: ((إن كل من لم يسلك طريق القوم و يتحقق بعلومهم حتى يعرف نفسه لا يصلح له إخلاص و لو كان أعبد الناس و أورعهم و أزهدهم فإن رحمه الله بمعرفة نفسه صحّ له الإخلاص))[82] و كان عليه إرشادهم، إلى ما يصح كطريق للتصالح مع الذات.

فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، و لذلك سعى الأمير إلى إبعاد جنوده عن كل المحرمات كالخمر، و القمار لأنها رجس من عمل الشيطان، و لكونه من مسكرات العقل و الضمير، لِما لها من مضار على صحة جنوده، الذين تحتاج إليهم أمتهم في ساحات الجهاد بأتم قواهم لتحقيق النصر، و لأن

---

[78]-الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق ممدوح حقي،بيروت، دار اليقظة العربية، 1965، ص75.

[79]-اسماعيل زروخي ، المرجع السابق، ص97

[80]-نفسه،ص90.

[81]- الأمير عبد القادر الجزائري، الواقف، صورة من النسخة الأصلية من المكتبة الوطنية، الجزائر،المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية،1996، ص35.

[82]- نفسه،ص36.

 ISBN: xxxx-xxxx

التدخين فيه إسراف يُحرمه الشرع، و لما لهذه الآفة من مضار تقتل الوقت، و تؤثر الكسل وتضيع المال و تسبب الانحلال و السطو جشعا على أموال الآخرين[83].

و ليس معنى هذا تحريم قطعي من الأمير، و لكن التدخين مكلف و الجنود فقراء و كان الأمير حريص على إبعادهم عن هذه العادة المكلفة ، لدرجة أنه كان يفرض لردع المتجاوزين، عقوبات صارمة خصوصًا على شاربي الخمور و لاعبي القمار[84].

و قد أكد لنا هذا أحد الرحالة الذين اقتربوا من مخيم الأمير إذ ذكر كيف أن أحد الأهالي، أسرع إلى أحد أعضاء الوفد، طالبًا منه إطفاء سيجارته، فيعلل أدريان بيربروجير هذا المنع: ((بأن عددًا من علماء المسلمين قد حرموا استعمال الدخان و حتى القهوة،و ليس ذلك التحريم المزدوج من نص القرآن بالتأكيد لأن الدخان و القهوة لم يكونا معروفين عند نزول القرآن و لكن يبدو أن الأمير عبد القادر باعتباره من المرابطين فقد اعتقد أن عليه أن ينضم إلى الرأي الأكثر تشددًا، على الأقل فيما يخص الرأي الذي يخص الدخان))[85].

كما فسر لنا الأمير عبد القادر في مواقفه آية في القرآن ، قال تعالى فيها: ((أفرأيت من إتخذ إلهه هواه و أضله الله على علم))[86]، فالأمير يرى أن للنفس ميل إلى ما يؤذيها،لأن الإنسان بطبعه ثائر على الروح في مملكته الإنسانية يتبع هواه[87].

و لهذا حارب الأمير العهر بشدة[88]، لما فيه من مضار للمجتمع و من ضياع للأنساب و من تفكك في الأسرة، بل لأنه ابتعاد عن القرآن، و اعتناق للمحرمات، التي نهى عنها الشرع و جعل لها حدودًا، أخّفها الجلد، و تنتهي بالرجم كقصاص، حيث كان لا يتردد في عقاب المخالفين، ليكونوا بالفعل أسوء عبرة للبقية.

أما عن السرقة فقد كلف الأمير خلفاءه و أعوانه و قادته، بتحمل المسؤولية كاملة عن الجرائم و السرقات التي تقع في مناطقهم، و بالتالي حرص كل واحد على منع حدوث النهب، رغم طابع الخيام و اتساع المساحة.

حيث جعل الأمير، مهمة الأمن و الاستقرار، هي مهمة الدولة و ليست مهمة الناس، لدرجة أنهم امتنعوا عن نصب مصائدهم، لكثرة مصائد الدولة، و حرصهاعلى القضاء على هذه العادة الهدامة التي تولدُ الاتكال، و نهب أرزاق الناس بدون تعب.

و ظل تحذير الأمير لمن تسول له نفسه السرقة، ساريا حتى على تعرض أمتعة الأجانب للسرقات، إذ يذكر لنا الكولونال إسكوت أنه تعرض للسرقة و تلقى تأكيدًا من الأمير عبد القادر، أنه لو عثر على أصغر أمتعته

---

[83]- الطاهر عزوزي، المقال السابق، ص192.

[84]-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص142.

[85]- أدريان بيربروجير،رحلة إلى معسكر الأمير عبد القادر في الونوغة والبويرة(1837-1838)، ت أبو القاسم سعد الله،مجلة الذاكرة،العدد الخامس،أوت1988 ،ص192.

[86]-سورة الجاثية، الآية 23.

[87]-الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، مرجع سابق، ص350.

[88]-هنري تشرشل، مصدر سابق،ص153.

 ISBN: xxxx-xxxx

عند عربي لقطع رأسه على الفور ، يعود هذا الأمن لنجاح الأمير في ترسيخ التصورات الإسلامية، في مجتمعه تنظيما له على هدي القرآن و السنة[89].

- **التمسك بالعروبة:**

لقد اعتبر العديد من المؤرخين، مقاومة الأمير عبد القادر ببعديها الروحي و الوطني،كأولى مظاهر القومية العربية الحديثة[90] ، و قد أكدت المواقف الفكرية و السياسية ذلك، فدولته كانت عربية اللسان، إسلامية الروح، وطنية الأهداف و المعالم، مجسدًا لها بكل أبعادها في كل تصرفات الدولة، مما يعطي لنا انطباعا صادًقا بمدى تمسكه بانتمائه الديني و بهويته العربية الأصيلة و تمجيده لمفاخر أجداده و إنجازاتهم في تمتين التجربة الإسلامية المستعملة في دولة الإسلام و مدنيّته و نلمس أيضًا جهوده من أجل تكوين قيم و مثل موحدة للمجتمع العربي في الجزائر و المحافظة على هويته[91].

فمفهوم القومية لدى الأمير تختلف عن نظرة غيره، فالعروبة عند عبد القادر هي الصلة و العلاقة الوثيقة مع أرضِه و بني جنسه، فهو العربي الشريف، عظيم النسب، المفتخر بالأمجاد و الذكريات التاريخية لأجداده،و المنتسب للنسل المحمدي، فارتباطه بآل البيت، جعله يمدح هذا النسب معتزًا بانتمائه للعرب[92]، معتبرًا ذلك شرًفا له و لأمته العربية هو ما أكده الكثير من الضباط الفرنسيين،و قد حكم الكثير من القادة العسكريين الذين كانوا في الجيش الفرنسي،على أن الأمير هو بحق الممثل الشرعي للقومية العربية في الجزائر[93].

و يزيد من هذا الافتخار تلك المكانة الراقية التي حظيت بها أُسرته بين بني وطنه من احترام، و دور هام في حماية الوطن، و الَذود عنه عملا بالأخلاق العربية التي تمجد الفارس العربي و باحترامه لكل شيء وخاصة الكلمة و الوعد فيقول في لقاء رسمي جمعه بالجنرال بيجو عام 1836 م بعد التوقيع على معاهدة" التافنا" مجيبًا على بعض شكوكه ((إذن لنا دينًا و أخلاًقا عربية تلزمنا المحافظة على قولنا)) [94] كان الأمير متمسكا بهويته، مصرًا دائمًا على بعث المفاخر العربية التي اكتسبها أيضًا بفضل رحلاته إلى الحجاز، و دمشق، و بغداد.

و في رسائِله كان دائمًا يستخدم كلمة العرب، وعيًا منه بضرورة الحفاظ على الهوية بل يواصل و يعرفهم بتاريخ العرب المجيد و أدوارهم في الفتوحات فيقول لـ ديمشال في إحدى رسائله: ((.....لقد ظهر لنا من

[89]–عامر البغدادي، المرجع السابق،ص69.

[90]–عبد الحميد ساحل، المرجع السابق،ص57.

[91]– محمد أحمد عبد العاطي، "الإسلام والعروبة في المغرب العربي"، مجلة قضايا عربية،السنة السادسة، العدد الثاني،جويلية 1979،ص268.

[92]– مصطفى نويصر، مرجع سابق،ص54.

[93]–عبد الله العروي،مجمل تاريخ المغرب،مرجع سابق،ص124.

[94]–نفسه، ص40.

 ISBN: ××××-××××

مضمون كتبكم، أنكم تحتقرون قوة العرب مع دوام استعدادهم للقتال، و مسابقتهم للميدان في كل زمان، و وإذا عدتم إلى كتب التاريخ قرأتم ما حقوقوه من الجرأة و الثبات و الإقدام))[95].

و يخبر بيجو في رسالة مماثلة عن الصفات و الأخلاق العربية، مفتخرًا بالوفاء العربي، و الشهامة التي تأبى الخديعة و الغدر بالأسرى، و خاصة المرأة التي حظيت بمكانة هامة، في المجتمع العربي، فيقول في هذا الصدد : ((شهامتنا العربية لن تسمح لنا أن نحيد و لو بقيد أنملة عن احترامنا للمرأة، و تقديسنا لجانيها))[96].

كما اعترف له بيجو بلقب "سلطان العرب"، و أدرك الطابع القومي لنضاله فكان يرى فيه قائد القومية العربية و ممثلها حيث يقول في ذلك :((عليكم أن تهاجموا القائد و القومية العربية في صلبها و يجب القضاء على هذه القومية و على قوة عبد القادر وإلا فإنكم لن تحققوا شيئًا في إفريقيا))[97].

[95]–هنري تشرشل، مصدر سابق،ص59.

[96]–مصطفى نويصر، مرجع سابق، ص60.

[97]– مصطفى نويصر، مرجع سابق ، ص59.

ISBN: xxxx-xxxx

الخاتمة:

يعد الأمير عبد القادر الجزائري من الرجال القلائل الذين جمعو بين تأسيس الدولة والفكر،. ويبقى الأمير من الزعماء الذين ذاع صيتهم أكثر بعد الاستئمان وإلقاء السلاح، ولم ينتهي الأمير ولا دوره، بل تواصل بفضل مآثره التي جلبت له احترام واهتمام المطلعين عليها. ولهذا:

-يعد الأمير كنموذج للحاكم المثالي لأنه لعب عدة أدوار في نفس الوقت بحيث اجتمعت فيه كل الوظائف الإنسانية المخولة لصنع شخصية البطل، في الدين والعلوم والتربية والاقتصاد والمعاملات، وكذلك دور القدوة لكل الأجيال .

-ساعده في ذلك عوامل عدة منها، نسبه الشريف والبيئة التي احتضنته والزاوية القادرية التي ربته، ضرب به المثال في الجهاد والصبر والدفاع عن الحق ولهذا أطلق عليه الأستاذ أبو القاسم سعد الله، سيد المجاهدين، فلم يرفع الأمير سيف الجهاد ليحطم بل ليبني واضعا دعائم لدولته العصرية بتوفير كل وسائل الازدهار، منتصرا على العدو الداخلي في الذات، بالتعبئة الروحية، الفردية والجماعية، حسب أصول الشريعة عن طريق التركيز على الجانب الأخلاقي والعقائدي كقاعدة لتكوين المجاهدين والرجال.

-نشر الأمير التصورات الإسلامية وطبق حدود الشريعة، باستنباط الأحكام بمنتهى الذكاء والدقة فاستحق بذلك لقب الإمام والقائد، والمربي لأنه كان يلقي الدروس، في الفقه والتوحيد حتى في أحلك الظروف كما دعا أيضا إلى نبذ التقليد عن طريق الحث على الاجتهاد لهزم العدو الظاهري، ولم يمنعه من ذلك الاستعانة بخبرات الأجانب ولا إهمال البعد الروحي للمجتمع لأنه ببساطة لا يعتبر الآخر عدو كإنسان بل كمعتدي

-ساهم الأمير عملا وقولا في يقظة المسلمين مما كان يحيكه الاستعمار.

-كان الأمير الصوفي المثالي في العالم الإسلامي الذي ربط بين الخلوة والواقع العلمي في سلوكاته ومعاملاته ومواقفه العامة والخاصة، فأبهر أعداءه بالذكاء والشجاعة والصمود، كما عرف الغرب المعنى الكامل للتصوف الإسلامي، رغم ما يعاب عليه من ثقة مبالغ فيها بالآخرين وتسامح يشبهه البعض بالسذاجة وأنه جعل الآخرين يستغلون طيبته، فلا يفهم حتما موقف الأمير إ لا من عاش ذاك العصر، بروح الأمير المتدين، المترفع، القوي الصلة بربه، والمؤمن بالقدر خيره وشره.

 ISBN: xxxx-xxxx

– كان الأمير ابن بيئته، استفاد كل الاستفادة من المكان في بايلك الغرب أو في رحلاته مبينا قدرته على التفاعل تأثير و تأثر متحررا من عقدة الآخر مقتنعا بضرورة تكافؤ القوى في أي مواجهة، مفضلا التأجيل على الاصطدام فأخذ من الحضارة الأوروبية وتعرف على جانبها المادي الذي يكمل الجانب الروحي لديه ويغيب فيها محافظا على أصالته العربية الإسلامية. كانت تجربة الأمير تجربة إصلاح لكل المؤسسات ذات البعد الديني عن طريق تمسكه بالعدل والمساواة .

ISBN: ××××-××××